مقدمة

الإنسان : ذلك العالم الخفى

يحقق العقل فى كل يوم وثبة رائعة من وثباته العلمية .. ففى عصرنا هذا .. أصبحنا نلمس ونرى أن ماكنا نعتبره منذ سنوات قليلة مضت ، محض خيال كاتب ، أو مجرد تصورات فنان ، أو حتى أوهام إنسان مجنون ، قد أضحى حقيقة تطوف فوق رءوسنا ، كسفن الفضاء أو تنقل إلينا العالم فى مساكننا كالتليفزيون الملون ، أو تقتحم أجسامنا كعدسات التصوير الطبية ، التى أصبحت من الدقة والرقة بحيث يمكنها أن تنقل للطبيب صورة عن الأعضاء والأمعاء من داخل الإنسان وبغير جراحة ... وهى وثبات سريعة لم يصل الإنسان إلى مثلها خلال أحقاب طويلة من تاريخه الحضارى . لكن هذه الوثبات بدلا من أن تحقق للإنسان الرضا بما لديه أو القناعة العلمية .. فإنها زادت شهوة عقله سعاراً إلى المعرفة ، وشجعته على محاولة اقتحام المجهول فى ميادين عديدة جديدة .. فهو لا يقنط ، بل يحاول فى كل يوم أن يتخطى الحواجز وأن يفك الطلاسم ، يدفعه إلى ذلك ما رُكّب فيه من استعداد للمعرفة ، وما فُطر عليه من حب الاستطلاع ، ذلك برغم درايته بوعورة المسالك وبُعْد المدارك .

والإنسان فى سعيه الدائب للمعرفة يطرق بفكره كل باب .. حتى عَنَّ له أن يطرق ذلك الباب الذى ينفتح على ذات الإنسان بجسمه وروحه وعقله ونفسه ،

لم يثنه عن عزمه علمه أن الإنسان ليس أحد الأشياء التى يمكن القول بسهولة أنها مما يقع تحت أيدينا أو مما تتناول مداركنا أغواره ، ولم يوهن من إرادته أنه حتى لو وقع الإنسان تحت يدنا .. فإن اليد لا يمكنها إلا الإمساك بالجلّ دون الكُلّ ، ولم يلجئه إلى القنوط قول البعض :

« إن منتهى العلم بالإنسان ، هو أن نعترف بجهلنا به وعجزنا عن معرفته ، ويكفى القول أننا حين عجزنا ، فإنَّا عَجَزْنَا عن دراسة (خليفة الله فى أرضه) » .

ونحن لسنا مع من يدفعه غروره العلمى إلى القول بأنه قد أحاط بكل شىء عن الإنسان علماً ، أو أنه قد أحصى شرايينه وخلاياه عدًّا .. كذلك فإننا لسنا مع من يقعدون عن البحث عجزاً وعيًّا .. أو من ينادون بأن الإنسان لابد وأن يبقى عالَماً مجهولاً لا يصح ارتياده .. وهو ما يخالف تماماً ما ينادى به علماء الغرب الذين حاولوا وما زالوا يحاولون إدخال الروح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادى بتجارب يتخيلون بها إمكان استحضار الروح ومخاطبتها . بل تصويرها .

وفى رأينا : أن الإنسان قضية من أعظم القضايا .. وأنه على قدر عظمتها ينبغى أن يكون الجهد المبذول لمعرفتها عظيماً ، ، وإلا كان نصيبنا من المعرفة متواضعاً على قدر جهدنا المتواضع .. فبديهى أن من يكتفى بإلقاء شباكه على الشاطئ لا يعود إلا بالمحار والأصداف ، أما الذى يغوص فى الأعماق فلابد أن يكون غالى الدرّ واللآلئ ، صيده .

القضية إذن عظيمة وعميقة ولابد للباحث عن معرفتها أن يسعى وأن يجهد عقله .. برغم أنه قد يصيب من عنائه الجُلّ لا الكُلّ .. وما الجُلّ فى معرفة الإنسان بالشىء القليل ، ولأننا نعرف ذلك يقيناً ، فإننا نبدأ رحلتنا فى هذا

الكتاب يصاحبنا إيماننا بأن الله لا يساوى بين الباحثين والقاعدين ، أو بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ..

وفى هذا نقتدى بسلفنا الصالح ، الذين طالما شمروا عن سواعد البحث والمعرفة وتحملوا جسيم المشاق ومُضْنى الجهد ، يخوضون حتى الأعماق فى كل موضوع يرونه جديراً بالدراسة .. يجتهدون بغير ملل ، ويواصلون الليل بالنهار دون كلل ، حتى يفتحوا لنا من العلم باباً جديداً .

وإذا كانت دراسة الإنسان مضنية فإن جانب الروح هو أكثر الجوانب فيه غموضاً وأشدها خفاء .. برغم أنه فى ذات الوقت أكثر الجوانب إغراء بدراسته ومعرفته .. وحتى هذا الجانب لم يهمله السلف الصالح أو يتناساه العلماء .. بل إنهم رحمهم الله ، قد تركوا لنا فى نفيس مخطوطاتهم ومفيد كتبهم ما يبهرنا ، حتى اليوم ولسنوات قادمة بسبق المعرفة وحسن العرض والمعالجة .

ومن بين الكتب على سبيل المثال رسالة[1] للإمام جلال الدين الدّوانى تستحق كل اعتبار وفى مقدمتها يقول الشيخ محمد زاهد الكوثرى (وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية) :

وغاية عِلْمنا .. أن حقيقة الإنسان لها ناحيتان :

ناحية الهيكل الجسمانى : وهو بطبعه يتهافت على الملذات السفلية .

وناحية الروح : وهى لطيفة ربانية نزّاعة إلى المعالى .

وتعجز أكثر العقول عن إدراك حقيقة الروح .. ذلك الأمر الربانى

---

(١) رسالة مخطوطة بعنوان « حقيقة الإنسان والروح الجوال فى العالم » للإمام العلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدوانى المتوفى سنة ٩٠٨ هـ ، وقد عرف الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه مولانا الأستاذ المحقق الكبير محمد زاهد بن الحسن الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً .

العجيب .. وللروح والنفس والعقل إطلاقات فى اصطلاحات أهل العلم قد تتلاقى وقد تتفارق .. وقد عنى الغزالى فى عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات، كما عنى بها الفارابى وابن سينا وابن رشد والرازى وغيرهم.

ويتدرج بنو الإنسان فى منازل متفاوتة فى صلتهم بالناحيتين فمن تغلب عليه الانهماك فى ملاذه الجسدية فهو ملحق بالأنعام. قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

ومن خلص من سلطان الملاذِّ الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الرّبانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر ، فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ..

وتمضى بنا الرسالة أو نمضى معها لنتعلم منها الكثير والكثير .. وسوف نعرض عليك الرسالة كاملة فى الباب الثانى من هذا الكتاب .. لنؤكد بها رأينا فى سبق معرفة علماء السلف وحسن معالجتهم ، وقد اختلف أهل العلم فى تعريف الروح .. وهل هو جسم لطيف يحل فى الجسم الكثيف الإنسانى . – وهو مذهب الجمهور – أو هو جوهر لا مكانى مجرد لا يوصف بالحلول والدخول ، ولا بالخروج والانفصال بل يوصف بالتعلق .. تعلق تدبير .. والناس فى تفهم ذلك على أنحاء :

فالعامى لا يتصور موجوداً كهذا .. **أما الخاصة** فلا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم فى تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها .

وممن مال إلى تجرد الروح : أبو منصور الماتريدى ، والحليمى (صاحب شعب الإيمان) ، والراغب الأصفهانى ، والغزالى ، والرازى ، والبيضاوى ، وغيرهم من صفوة علماء المسلمين المجتهدين .. كذا البطليوسى فى الحدائق ..

نفعنا الله بعلمهم آمين ..

ولكننا فى هذا الكتاب سوف لا نقتصر على رأى العلماء فقط .. وسوف ترى كلما ارتحلت مع الصفحات كيف كان الجهد عظيماً .. وأن ما أنجزناه فى الكتاب كان بعون الله وتوفيقه لا بهمة الإنسان وذكائه.

فإن أصبنا فمن عند الله وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا .. والله هو الموفق .

المؤلفان

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل

ليس بين المسائل مسألة معضلة شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ ، وستظل تشغله حتى ما بعد الآن .. مثل مسألة الروح .. والإنسان لا يفتأ فى كل يوم يحاول أن يمسك بخيوط معرفتها ، بكل الوسائل والأدوات ، وبكل الحواس وعيون النظر .. يعمل آناء الليل وأطراف النهار جاهداً أن يلحق بها ، كما لحق بغيرها ممَّا كان مغيَّباً عنه ، فأصبح ملك يديه مسخرا له كيف شاء ، كتسخير الفضاء ، والاستفادة من الكهرباء .. ولكن ما هكذا أمره مع الروح .. فما بال هذه المسألة تزداد فى كل يوم غموضاً عليه ؟ ؟ وما باله كلما ظن أنه ظفر بها أو حتى اقترب منها أفاق من وهمه ، فإذا هو حيث كان وإذا هيَ تُحملق فيه متحدّيةً ؟ تؤكد له أن القرآن الكريم قد وصفها بأنها ليست مما يقع تحت يد الإنسان كغيرها ، بل هى جوهر من أمر الله لا من أمر البشر .. وأن علم الإنسان بها مهما عظم فهو قليل ، حتى سئل الرسول ﷺ عن الروح تحدِّياً له ، وإرهاقاً من مَاكِرِى اليهود فقال لهم أخبركم غداً .. حتى جاءه الوحى بعد مدة ليعلمه الآية : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فلو أن الروح كان من الأمور السهلة ، لما كان أحد الأسئلة المتحدية للرسول

من ما كرى المشركين اليهود « مع ضرورة علمنا أن اليهود ما كانوا ليسلموا ، حتى لو كشف الله لرسوله ، ﷺ ، عن أسرار الروح » .

ولكن هذا الغموض طالما دفع العلماء والباحثين أكثر مما أيْأَسهم .. إلى استِكْناه حقيقة الروح .. وذلك لسبق علمهم أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد كلف المؤمنين من عباده باستمرار البحث والنظر والمعرفة .. كذلك هم يعلمون أن كل علم لديهم مهما تفرعت أصوله وتشعبت فروعه ، هو على كثرته قليل إذا ما فكرنا فى مقارنته بعلم الله .. فسبحان العلاّم المحيط بكل شىء .

ومن هنا نجدهم وقد أمسكوا بعصا التقوى يستدلون بها على طريق معرفة الروح .. (اتقوا الله ويعلمكم الله) وكلما تزودوا بالتقوى علّمهم الله من علمه ما لم يكونوا يعلمون .

وفى موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية[1] :

« اختلفوا فى المراد من الروح المذكور فى قوله تعالى : (قل الروح من أمر ربى) على أقوال : فقيل : المراد به – ما هو سبب الحياة – وقيل : القرآن . يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) . وأيضا فبالقرآن تحصيل حياة الأرواح وهى معرفة الله تعالى . وقيل : جبرائيل . لقوله : (نزل به الروح الأمين . على قلبك) وقيل : ملك من ملكوت السموات هو أعظمهم قدراً وقوة ، وهو المراد من قوله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا) ... كذا فى التفسير الكبير للرازى.

وقيل : الروح خلق ليسوا بالملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ، ولهم أيد

---

(١) المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون للشيخ المولوى محمد أعلى بن على التهانوى المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى جزء ٢ – خياط – بيروت . ص ٥٤٥ وما بعدها .

وأرجل ورءوس وهم يشبهون الناس وليسوا منهم ، قالها أبو صالح ، قال الإمام الرازى فى التفسير الكبير ، ولم أجد فى القرآن ولا فى الأخبار الصحيحة شيئاً يمكن التمسك به فى إثبات هذا القول ، وأيضاً فهذا شىء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال إليه .

قال صاحب الإنسان الكامل : الملك المسمى بالروح هو المسمّى فى اصطلاح الصوفيّة بالحق المخلوق به ، والحقيقة المحمدية نظر الله تعالى إلى هذا الملك بما نظر به نفسه ، فخلقه من نوره ، وخلق العالم منه ، وجعله محل نظره من العالم ، ومن أسمائه أمر الله .. هو أشرف الموجودات وأعلاها مكانة وأسماها منزلة ، ليس فوقه ملك هو سيد المرسلين وأفضل المكرمين .

اعلم أن الله تعالى خلق هذا المُلك مرآة لذاته ، لا يظهر الله تعالى بذاته إلا فى هذا الملك ، وظهوره فى جميع المخلوقات إنما هو بصفاته ، فهو قطب الدنيا والآخرة ، وأهل الجنة والنار والأعراف ، اقتضت الحقيقة الإلهية فى علم الله سبحانه ، ألا يخلق شيئاً إلاّ ولهذا الملك فيه وجه ، يدور ذلك المخلوق على وجهه ، فهو قطبه ، لا يتعرف هذا الملك إلى أحد من خلق ا لله إلا للإنسان الكامل ، فإذا عرفه الولى علّمه أشياء ، فإذا تحقق بها صار قطباً تدور عليه رحى الوجود جميعه ، وهو قائم فى عبوديته الحق متصرف فى تلك الحضرة الإلهية بما أمره الله به .. » انتهى ما جاء فى الموسوعة .

وهكذا .. وهكذا .. نجد التعريفات شتى والتفاسير كثيرة .. فالأمر ليس من السهولة بمكان كما قد يظن البعض .

لذا يعود الإنسان ليسأل من جديد .. ما الروح .. ؟ وكيف بدأت الفكرة .. عند الإنسان البدائى .. والفراعنة وفلاسفة الإغريق والرومان

والهندوس وغيرهم .. وما الروح فى الموسوية والنصرانية وعند العرب والمسلمين وفى فكر المتصوفة ؟

هل هو جسم[٢] متحيز ؟ وأين ؟ هل هو لطيفة ربّانية ؟ وكيف ؟ هل الروح قديمة أو محدثة ؟ وهل هى متعلقة بالبدن ؟ وما مراحل هذا التعلق ؟ وهل تموت الروح ؟ وما مستقر الأرواح ؟

وقبل ذلك كله .. ما مفهوم الروح فى اللغة العربية ؟ وما حديث القرآن عنها ؟ وهل الروح والنفس شىء واحد ؟ أولا ؟ وما الفرق بينهما ؟ وهل الروح تسبق خلق البدن أو أن البدن يخلق قبلها ؟ ..

وكلّما فرغنا من الإجابة عن سؤال .. انبرى لنا سؤال جديد متحدّياً ومعجزاً ..

فماذا عن الروح فى الفكر المعاصر ؟ وما مدى الاهتمام بالنشاط الروحى ؟ وهل يمكن وضع الروح تحت ميكروسكوب الطب ؟؟

وما هو الروح القدس ؟ وما صلة الروح بالمعجزات والكرامات والرؤيا ؟ وكذا ما صلتها بالسحر والحسد والتنجيم وعلم اليازرجة والإيحاء والتنويم المغناطيسى ؟

---

(٢) الروح يذكر ويؤنث (مختار الصحاح).

عزيزى القارئ :

هذه بعض الأسئلة التى يجيب عليها هذا الكتاب .. ولسنا نريد أن نزيد حتى لا نثقل عليك .. فأولى بنا الآن أن نصافحك ، لتنفرد بهذا الحصاد الذى أجهدنا جمعه وتلخيصه وإعادة تبويبه وترتيبه وتحقيقه ومراجعته .. لنهديه فى النهاية إليك .

هذا وبالله التوفيق ..

القاهرة فى ٩ / ١ / ١٩٨١ م

د . عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحيى

obeikandl.com